الناقد والروائي الفلسطيني يوسف أبوالعز:

الحس الساخر هو الاداة الانجح للتعبير عن المأساة!

الاردن ـ «القدس العربي»
ـ من اياد كنعان:

ولد يوسف ابو العز متأخرا ثلاث سنوات عن النكبة الفلسطينية، درس الادب الانكليزي والمسرح في بغداد، وعمل في التلفزيون العراقي، أخرج عدة افلام سينمائية، قبل انتقاله الى مدينة جدة السعودية وعمله محررا ثقافيا في صحيفة الرياض، الشرق الاوسط، ثم رئيسا لتحرير مجلة «فن» التي صدرت عن غاليري روشان في مدينة جدة السعودية قبل توقفها وعودته الى عمان، صدرت له رواية (فضائح الحنون) عام 1999، وهو مكب الان على كتابة روايته الثانية، هنا حوار معه:

■ انطوى عنوان روايتك (فضائح الحنون) على (تناقض) غريب! فكيف للحنون، هذه الزهور البرية، ان يكون لها فضائح!

■ **ينطوي العنوان على مفارقة، هذا صحيح، كما ينطوي على غموض غير متعمد، عندما فكرت في العنوان، كنت أسعى للتعبير عن فضائح العالم الذي ارتهنته القوى العظمى، فعاثت به فسادا، كنت أسعى لادانة الحرب بل الحروب القذرة، التي جرت وما زالت تجري في العالم، تحت مسميات مختلفة، كنت أشهد على اللامعقول، على العبث بمقدرات شعب بريء، ينتزع من أرضه لتحل محله مجموعة من البشر لملمت من مختلف أصقاع العالم، بقوة السلاح، وقوة التآمر الخبيث، وخيانات الانذال، باختصار كنت أشهد على موت الانسان بعد أن تحول الى وحش قاتل، كنت أشهد على الخراب، يتكرر لفرض ارادات قوى همجية، تلبس ثيابا أنيقة وتشرب دماء البشر، وتتبجح بالقانون والعدالة والديمقراطية.وفي مقابل كل ذلك، كنت أرى كيف يطلع الحنون في أراضي طولكرم، حتى في حواري المخيم البائس، بكل عنفوان كان يطلع، متعطشا للحياة، باثا روائحه وألوانه وتكويناته البديعة، ليذكر بروعة الحياة وجمالها، لكن أدوات الدمار لا تتعلم منه قوة الحب بل تقصفه بالموت والخراب، حتى رأيت أن ظهور الحنون في هكذا زمن، زمن الاحتلال وتشريعه، زمن (الدعارة) المشين، زمن التواطؤ والاستسلام، لم يكن الا فضيحة، خاصة وأن احمرار الحنون الصارخ يغيظ القتلة بسبب روعته وجماله، فأي مكان للجمال في زمن القبح؟ ولا شك أن هذا لا يؤخذ بمعناه الحرفي، بل بما يحتويه من سخرية، وبما يوحي من ردة فعل رافضة.**

■ أنت تهدي روايتك الى حشد كبير من الناس المعاصرين لنا، ومن وجدوا في التاريخ عبر العصور، فماذا يعني لك كل الذين أهديتهم روايتك ابتداء من «أبوطالب» مرورا بآرنستو تشي غيفارا، الى جيروم بوش؟

■ **أجد في هؤلاء عائلتي، أسلافي على صعيد البشرية، أجد أن كلا منهم لعب دورا في تكويني، سواء كان مباشرا أو غير مباشر، أجد فيهم خط الانسانية المستقيم، أجد لكل منهم خلية أو خلايا في جسدي وروحي، أجد فيهم جينات الابداع الذي ألهمني كي أقول شيئا، أجد في كل منهم أثرا في نفسي عميقاً، أجدهم يعيشون بي، أجد عند كل منهم ثورة من نوع ما، أجد فيهم رموز لغتي، أجدهم عنوان ثقافتي، أجدني مسكونا بهم دوما.**

■ نوهت في بداية روايتك بأن أحداث الرواية هي محض خيال، وليس لها علاقة بالواقع، فالى أي مدى تعتبر هذا التنويه (واقعيا)، والى أي مدى تطابقت أحداث الرواية مع سيرتك الذاتية؟

■ **هذا تقليد دأب على اتباعه العديد من كتاب القصص والروايات تجنبا لأي مقاضاة قد يلجأ اليها شخص يرى نفسه في أحد شخصيات الرواية فيحتج، والواقع أنني قد استهللت روايتي بعكس ذلك، أي أنني نوهت الى أن هذه الرواية ليس فيها شيء من خيال أو ابتكار، لكن الواقع في كثير من الاحيان قد يبدو اكثر غرابة من الخيال، ان الشخصيات الواردة فيها حقيقية، وان بدلتُ في أسماء بعضها فلغايات محض فنية، ولكني نُصحتُ بالتغيير من قبل البعض، سيما وأن هناك الكثير من المطبات التي من الممكن أن تسبب لي بالفعل الكثير من (وجع الرأس)، ولا اخفيك انني (جبنت)، كتبت ما كتبت متيقنا أن القارئ لن يحتاج الى جهد كبير كي يكتشف أنني كنت كاذبا!!**

■ يلحظ القارئ لروايتك نزوعا شديدا نحو تقنيات الكتابة المسرحية من صوت وصورة، حتى الصمت والفراغ، كان لهما مكان في عملك الروائي، فهل تعتبر ذلك اضافة نوعية لفن الرواية العربية؟

■ **ليس لي أن أزعم أنني أضفت شيئا لفن الرواية العربية، هذا يقرره النقاد اذا ما لفتت الرواية انتباههم وتفضلوا بقراءتها، كما يقرره القارئ المهتم، أعني المتابع لحركة الرواية العربية، ولكني أبوح بأنني شغوف بالمسرح وتقنياته، لقد درست المسرح لمدة خمس سنوات في معهد الفنون الجميلة ببغداد، وأحمل فيه شهادة الدبلوم، كما أنني مفتون، وربما أكثر من المسرح، بالسينما، وأرى كما يرى ماركيز (أن للأشياء حياتها الخاصة وما علينا الا أن نوقظ روحها فقط)، وأبوح أنني مفتون بجيمس جويس، وتعلمت منه هذه التقنيات، وربما لجأت الى تقليده بوعي أو دون وعي. حقا انه لمن الجميل أن تُصور بالكلمات مشاهد أو أصوات، أو صمتا، فلجأت الى ما يسمى بـ(الاناتوموبيا) كتقليد الأصوات التي تصدر عن الأشياء: الكؤوس مثلا، أو حركة الماء، أو الفراغ بترك فراغ نصي، أو السواد، كدليل على الظلام أو (عميان القمار) عند شخصية متأزمة الخ..**

■ اقتربت في روايتك من التكثيف اللغوي العالي، والحوارات شديدة التداخل، والمشاهد المركبة عاموديا، لتصنع حوارا فلسفيا عاليا مشبعا بالعمق والدلالة، محافظا في نفس الوقت على خط روائي شفيف جمع أحداث الرواية ببعضها. ما هو تعليقك على ذلك؟

■ **هذا اطراء أرجو أن أستحقه، ولكني بكل الأحوال اثق بذائقتك الأدبية والفنية وأرجو أن لا يؤخذ هذا من قبيل تبادل المجاملات!**

■ كأنك، من خلال سيرة «كنعان» بطل الرواية، تروي سيرة الشعب الفلسطيني، فالى أي مدى ارتبطت تلك السيرة بكنعان بطل الرواية، وبيوسف أبوالعز كاتبها؟ والى أي مدى انعكست تلك الرؤية على عناوين الفصول الفرعية لروايتك؟

■ **تكرس لدي/لدينا أننا امتداد لكنعان، وقد جرنا حبل السرة بعد توالي الحضارات والامبراطوريات لنعود الى الشواطئ المطلة على أرض كنعان ونعيش في فلسطين قبالة اليونان فنظل نحلم بتلك الحضارة التي كانت تنتمي الى الفينيقيين، وكان لهذا الاسم المقتبس من الطائر الأسطوري «الفينيق» الذي كلما كبا أو احترق يعود لينتفض من رماده ويحلق عاليا. من هنا حاولت أن أسقط شخصية كنعان على شخصية صاحب السيرة الذاتية في رواية «فضائح الحنون»، ولكن لم أتوخ الدقة التاريخية، بل الملامح العامة، ولا أدري الى أي درجة وفقت في ذلك، الا أنني حاولت في العناوين الفرعية أن أستلهم الميثولوجيا وخصوصا في الفصول الأولى، كفصل «الخروج/الحضور» لأتحدث عن الخروج من فلسطين ثم عن حضور كنعان الذي يولد في خيمة كأنها خارج كل مكان «لا انسانية» الخ.. ثم فصل «التكوين» لأروي المراحل الأولى من سيرة كنعان، المشاهدات والجوانب النفسية، وما تناهى اليه من روايات الكبار عن مجيئه للحياة وعن سيرة الهجرة الخ.. ثم «فصل اللجوء اليه» لأتحدث عن الظلم الذي لا يرده شيء الا اللجوء الى الله، وهذا من وجهة نظر الوالدين، ثم فصل «شجرة آدم» حول مرحلة البلوغ عند كنعان، وأزمة المراهقة وتساؤلاته عن طبائع الأشياء الخ.. ثم «فصل الثورة» لوصف بداية وعيه السياسي والوطني، ولكل هذه الفصول أبعاد ميثولوجية وجودية (ربما) لتبدأ الفصول التالية بأبعاد واقعية تسرد أحداثا معاصرة، وتحكي عن رحلة كنعان وعودته من أسفاره.**

■ كيف تقرأ المشهد الروائي العربي عموما، والفلسطيني بشكل خاص، وهل استطاعت الرواية الفلسطينية أن تحمل الحلم العربي بالتحرر والخلاص؟

■ **في المشهد الروائي العربي هناك قامات عالية تثير الاعجاب وتستحق الاحترام، فهناك طه حسين التنويري الكبير، توفيق الحكيم، صنع الله ابراهيم، الطيب صالح، نجيب محفوظ، جمال الغيطاني، يوسف القعيد، ادوار الخراط، الياس خوري، عبدالرحمن منيف، حيدر حيدر، حنا مينة، عبداللطيف اللعبي، سليم بركات، أمين معلوف، تيسير السبول، مؤنس الرزاز، يحيى الطاهر عبدالله، وغيرهم الكثير الكثير الذين لا يتسع المجال لذكرهم، والذين قدموا تجارب مهمة ساهمت في بناء الوعي الأدبي وبناء ثقافة تنويرية، كان لها دور طليعي في تشكيل الوعي الجمعي وتشكيل ثقافة ثورية.**

أما على الصعيد الفلسطيني، فمنذ رواية «فتاة من فلسطين» لعبدالحليم عباس عام 1949 التي أتبعها برواية «فتى من دير ياسين» لم تتوقف الروايات التي تتكلم عن القضية الفلسطينية بأسلوب روائي ناضج/منحاز الى القضية الفلسطينية برؤية انسانية في معظم الأحوال، تجلى أكثر ما تجلى في أعمال اميل حبيبي وخصوصا في رواية سعيد أبي النحس المتشائل، وسداسية الأيام الستة، ثم في أعمال غسان كنفاني، ويحيى يخلف ورشاد أبو شاور والقائمة طويلة، عمل دؤوب لم يتوقف بهدف الحفاظ على الذاكرة، والاستمرار في شحذ الوعي ليبقى ماضيا حادا، ولكي تبقى القضية حية لا تحتمل احتلالا، ولا ترضى بحل غير عادل، ولا تساوم على حقوق، ولا تفرط بزهرة حنون، أو أغنية شعبية فيها شجن وحنان وفيها ذكريات الأحباب، الذين استشهدوا منهم، أو رحلوا الى بارئهم، أو أبعدوا أو هاجروا قسرا، لأن فلسطين طال الزمن أو قصر عائدة لأصحابها، ذلك أن الاحتلال دائما لا يدوم، وان دولة الاحتلال الصهيوني دولة مفتعلة مليئة بالتناقضات وعوامل التحلل والانهيار.

■ لم تقابل «فضائح الحنون» بالاهتمام الاعلامي الذي تستحقه، رغم النضج الروائي الواضح في هذا العمل، فإلام تعزو تجاهل الصحافة العربية والمحلية للكثير من الأقلام الجادة، وفي أي خانة تصنف هذا التجاهل؟

■ **لذلك عدة أسباب، لقد عانت الرواية مخاضا طويلا حتى ظهرت، فقد أنجزت في 1989 ولم تر النور الا في 1999 مع أن دار كنعان للنشر والتوزيع في دمشق تبنتها بعدما خضعت لتقييم لجنة تتألف من كتاب كبار كالروائي الكبير الدكتور عبدالرحمن منيف والمسرحي الفذ سعدالله ونوس (رحمهما الله) والناقد الكبير فيصل دراج، وقد أوصي بنشرها فأدرجت في قائمة المنشورات في الكتيب الصادر عن الدار نفسها عام 1994، وفي آخر زيارة للدكتور منيف الى الأردن، حرصت على مقابلته، فعبر لي عن اعجابه بها وتحمسه لها، وطمأنني الى أن المسألة مسألة وقت ليس الا، وما يحصل معها هو ما كان يحصل مع «قضايا وشهادات» حيث الروتين القاتل يؤخر الطباعة ويعيق الانجاز، ولكني فوجئت بعد ذلك باعتذارهم عن نشرها، وأعادوها لي بلا نشر، ولكن ما يعزي النفس أنها كانت مشفوعة بخطاب من الدار ينوه بأن الدكتور عبدالرحمن منيف أعجب بها وأوصى بنشرها، وأنا أحتفظ بهذا الخطاب باعتزاز كبير، رغم ان العزوف عن نشرها من قبل دار كنعان ظل لغزا يحيرني. ومن ناحية اهتمام النقاد فقد كتبت عنها عدة مقالات وأجريت لي بعض المقابلات، ولكننا يجب أن نعترف بأن الحركة النقدية عندنا ضعيفة، وبالكاد تتجاوز المقالات الصحافية، ولا تتظاهر الا في المؤتمرات التي يغلب عليها طابع الاحتفالية، والاستعجال، والحرص على المشاركات الكمية أكثر من النوعية. وكما تعلم فان دافع الكتابة عن أي كتاب لا يتعلق بأهمية الكتاب، أو الكاتب في كثير من الاحيان، بل تمليها شروط العلاقة الشخصية، والمزاج الشخصي، وظاهرة ما يسمى بالشللية، والتبادلية، وندماء الطاولات، وما نشهد عليه من فوضى تجعل أصحاب المنابر يتعمدون تجاهل الابداع الحقيقي، (ولا أقصد نفسي) ربما بسبب فوبيا أو عصاب، يخافون بسببه من تجلي هكذا ابداع، فقد يرون فيه الغاء لهم أو لغاياتهم.**

على العموم، فان لي في رأي الشاعر طاهر رياض، الذي قرأها مخطوطة، فوصفها بالرواية الشعرية، واهتمام المخرجة سوسن دروزة التي اهتمت بالرواية وأنتجت عنها حلقة في برنامجها الثقافي «آرتي فن» الذي بث عدة مرات في التلفزيون الأردني، وآراء عدد من الكتاب الذين تفضلوا بالكتابة عنها، لي في كل هذا وغيره عزاء يكفيني. ثم أن هناك روايات عظيمة، لم يلتفت اليها الا بعد وقت طويل من الزمن.

■ تحمل روايتك حسا نقديا ساخرا وواضحا لاشكالية اللجوء وأبعاده المأساوية والانسانية العميقة، خاصة في حديثك عن (المخيم) كبديل متاح ووحيد للوطن. كيف استطعت أن تبث هذا التناقض بين مفهومي: الوطن المستلب بكل ما يعنيه من أمن وأمان، والمخيم بكل تناقضاته وبكل ما يعنيه من غربة وخوف وحرمان؟

■ **أؤمن بأن الحس الساخر هو الأداة الأنجع للتعبير عن المأساة، فهو القادر على كشف المفارقة، أو المفارقات العديدة، عن التناقض، وأرجو أن أكون قد وفقت فعلا في تحقيق ما وصفت. وان كان كذلك، فهو نتيجة لحقيقة المأساة الكبرى: القضية التي اسمها قضية فلسطين. فكل ما دار حولها من حديث على مدى القرن الماضي، أي منذ وعد بلفور ومن ثم تنفيذه، لم يدر الا في حلقة مفرغة، بل هي حلقة تعمق المأساة، وتزيد هوة التناقض، وتبتعد عن الحوار المنطقي. عمقتها بشكل فظيع اتفاقية كامب ديفيد وزيارة السادات الى القدس، حيث راحت الضحية تعتذر الى الجلاد، صاغرة مذلولة، خاضعة لكل الشروط، بلا حق، فصار المحتل ضحية، والواقع تحت الاحتلال جلادا، أفليس هذا عبثاً؟ فأي غودو أكثر عبثا من ذلك؟ ثم (طيّنها) اتفاق أوسلو، الذي لم تصل الرواية الى تاريخه، وجاء مجهضا لانتفاضة الحجارة التي فتنت العالم بأدائها وأحرجت دولة الاحتلال، وها هي نتائجه: قتل للفلسطينيين مشرع في القوانين الدولية على أنه (دفاع عن النفس)، وثورة شعبية تناضل ضد الاحتلال تسمى في القوانين الدولية (ارهابا)، فأين نحن الآن مما قبل أوسلو؟ انه اللعب بالمفاهيم بقصد خلق البلبلة والمراوغة، ليس من الأعداء فقط، بل من المنتفعين من أوسلو، أصحاب (البزنس) وحاملي الحقائب المحشوة بالدولارات، وليظل المخيم مخيما، والمحتل ماض في خطة الابادة الجماعية، وما كان نصيب عرفات من كل ذلك الا السم. فليتنازل من يشاء، والتاريخ كفيل بهم جميعا.**

■ لقد كانت لك تجربة في الاخراج السينمائي والتلفزيوني أثناء فترة وجودك في العراق، حدثنا عن تلك التجربة، وهل لديك مشاريع مستقبلية في هذا الشأن؟

■ **كنت أدرس الأدب الانكليزي في بغداد، وعندما علمت أن معهدا للفنون الجميلة يدرس الموسيقى والفنون التشكيلية والفنون الدرامية، وأن به قسما للدراسات المسائية التحقت به، فكنت أدرس صباحا في الجامعة ومساء في معهد الفنون الجميلة، وعندما تخرجت من الجامعة بقيت على دراسة لمدة سنتين في المعهد حيث أن الدراسة فيه خمس سنوات، أثناء ذلك التقيت المخرج عبدالهادي الراوي، الذي كان يتهيأ للسفر الى بيروت لانجاز فيلم عن الأحداث هناك، فعرض علي السفر معه فذهبت، وتم انجاز فيلم «العاشقون الحياة» وهو يحكي عن المقاتلين الذين أصيبوا واستمروا في النضال. ثم بذلت جهدا مضنيا للدخول الى تلفزيون بغداد، فوفقت في ذلك، وكتبت قصة لمهرجان أفلام فلسطين الرابع بعنوان «الوصية» حاولت فيها أن أطبق نظرية جديدة تنفي عن التمثيلية أنها تمثيلية بل هي حقيقة وان كانت على الشاشة، ولا أظن أنه كان من الممكن الوصول الى التعبير الكامل لما أردت أن أقوله. طبعا أثناء وجودي في قسم التمثيليات في تلفزيون بغداد عملت كمساعد مخرج ثم مخرجا مساعدا ثم مخرجا، وقد أتيت لعمان لعمل فيلم كتبته عن بسام الشكعة، ليخرجه المخرج المتميز حقا بسام الوردي، وأشارك فيه كمساعد مخرج أيضا.. ولكني بعد أن أتيت لعمان لم أعد الى بغداد، ثم ان مهرجان أفلام فلسطين قد توقف.**

■ دعنا نتحدث قليلا عن تجربتك النقدية، أعلم أنك ترأست تحرير مجلة (فن) السعودية التي صدرت في لندن عن غاليري روشان في جدة ولندن، حدثنا عن هذه التجربة، ما هو الأثر الذي تركته في نفسك، ولماذا توقفت عن الصدور، رغم الصدى الاعلامي الهام الذي حققته منذ اصدارها الأول؟

■ **مجلة «فن» حلم تحقق بامتياز، كما شهد على ذلك الفنانون والنقاد. كنت أثناء دراستي للمسرح قد تعرفت الى فنان غريب الأطوار اسمه (ظافر عدنان)، الذي صار صاحبي فصرت أصحبه الى قسم الفنون التشكيلية في معهد الفنون الجميلة، وكذلك الى المعارض المقامة في المعهد أو في الصالات العامة، وأخذت أطالع الكتب والمجلات والمقالات التي تتحدث عن الفن التشكيلي، فتشكلت لدي ذائقة تشكيلية زادت ثقافتي أبعادا جديدة، وأدخلتني في حرم هذا الفن البصري الفتان، فأصبح هما من همومي، وفي تلك الفترة كان الفنان الكبير شاكر حسن آل سعيد يدرس في معهد الفنون، في الوقت الذي كان يمارس نشاطه الفني، وقد داومت على حضور بعض محاضراته، وكثيرا ما كنا نتحاور انا وصديقي الفنان الشاب، في قضايا الفن التشكيلي، ونتطرق الى فلسفات الفن، لنعرج على ما يطرحه الفنان شاكر من فلسفات، فأحيانا نتفق وأحيانا نختلف معه، ولكن لم يكن لهذا الحوار العلمي أن يفسد للود قضية، طالما أن الهدف لم يكن يتعدى كونه علميا، ولم يكن غرضه، سوى الجدل العلمي الفني، وتطوير الأفكار وتلاقحها. لكني لم أجرؤ في يوم على محاولة الرسم، رغم أنني كنت أثمن كل محاولة رسم تصدر عن أي شخص يحصر نفسه في غرفة ويشرع في سكب الألوان على قطعة قماش أو على ورق من أي نوع، ليلفت النظر الى تكوين، أو فكرة، أو محاكاة الخ.. الفن التشكيلي بالنسبة لي فتنة، جمال لم أجرؤ على التجريب فيه لما أرى فيه من بهاء فاتن لايحتمل العبث.**

عندما سافرت الى السعودية، ذهبت في أول فرصة الى احد المعارض، فتعرفت الى فنانين عديدين، فأخذت تتشكل عندي رغبة في الكتابة بالهام ما أرى من أعمال فنية جميلة، ومرة زرت أحد الفنانين لأجده يضعني في سيارته ويقول: سوف آخذك الى مفاجأة، ووجدت نفسي فجأة في بيت طبيب سعودي، له طفل في الرابعة عشرة من عمره هو «طارق الغفيلي» الرائع، ولكنه «ويا سبحان الله» أصم وأبكم، رسام بارع، وكان من أهم اللوحات التي لفتت انتباهي هي لوحة عن الحرب في لبنان 82، يرسم فيها الدمار، ويرسم العلم الفلسطيني تطوحه الرياح، فيميل ولكنه يقاوم الرياح والرصاص، سمعت في هذه اللوحة صراخ طارق، فحاورته عن طريق أمه التي كانت تكلمه بالاشارة ويجيب كذلك وبأصوات محدودة تفهمها فتترجمها لنا، كما انني شاهدت فيلما عن معرض له في باكستان. أثارني طارق كثيرا فكتبت عنه ما يمكن اعتباره أجمل مقال لي في الفن التشكيلي، كنت أنوي ارساله الى فنون عربية، لكني أثناء ذلك تعرفت على الفنان التشكيلي الاردني عصام طنطاوي الذي كان يقيم في السعودية حينها، فعرض المقال على جريدة الرياض التي طلبتني بعد ذلك لتحرير صفحة في الفن التشكيلي هناك، فبقيت أحررها حتى انتقلت من الرياض للعمل في جدة، حيث تفرغت للعمل كمحرر ثقافي في جريدة الشرق الأوسط، وحيث كنت أتردد على غاليري روشان لتغطية النشاطات الفنية التشكيلية، توثقت العلاقة بالقائمين عليها، حتى أسسنا تقليدا لنقاش كل معرض في ندوة، لأتوصل من خلال ذلك الى جواب على سؤال عن سبب تدني مستوى الثقافة التشكيلية لدى المواطن العربي، وهو أنه ليست هناك مطبوعات تهتم بهذه الثقافة وتقدمها بأسلوب لائق وجذاب ينمي عنده الذوق الفني. واذ تحمسوا للمشروع طلبوا تقديم دراسة فقدمتها مفصلة، ووافقوا عليها، وقدمنا بها الى عمان ليصممها الفنان عصام طنطاوي، ونطبعها في سينغافورة، لتكون آية في الجمال، غنية في مواضيعها وتغطياتها، ووزعت على مستوى العالم والوطن العربي، فرحب بها على كافة الصعد، الا أننا بعد عدة أعداد داهمتنا رياح غير مواتية فتوقفت عن الصدور.. للأسف الشديد.

يوسف أبوالعز (القدس العربي)

أوراق مفتوحة:

المغرب الهجين أو اسلام القطارات

يحيى بن الوليد*

■ مرة أخرى فعلتها باقدامي، في مختتم الأسبوع الماضي، على حجز تذكرة الدرجة الأولى في قطار من قطاراتنا المغربية المباركة التي كانت متوجهة من العاصمة الى مدينتي الصغيرة أصيلة الغافية على شاطئ الأطلسي. وفي الحق ما كنت لأقدم على هذه الخطوة لولا حصولي على مبلغ مالي شبه محترم مكافأة لي على مقال كنت قد نشرته خلال العام الماضي في احدى المجلات الثقافية الحكومية؛ موازاة مع ـ وقد يكون هذا هو الأهم ـ الوعد الذي كنت قد قطعته، في صباح اليوم نفسه، مع الصديق والحقوقي عبد اللطيف شهبون على أن نلتقي في القطار نفسه (قطار السادسة والربع) والدرجة ذاتها حتى نستأنف حواراتنا الكثيرة التي لا تحيد ـ وفي الأغلب الأعم ـ عن «الشأن السياسي اليومي» الذي نجد أنفسنا في غماره دون وعي منا.

ولم أتفاجأ بعد وجود الصديق عبد اللطيف شهبون في القاطرة الوحيدة التي كانت تأوي «الأوائل»، وخمنت أن الأمر يعود الى اجتماعات منظماتنا وأحزابنا واطاراتنا الثقافية التي كثيرا ما لا تستغرب المدة الزمنية المتفق عليها من قبل. ولذلك حجزت مقعدي المحدد عملا بالرقم المثبت في تذكرتي وتفاديا لأي سوء تفاهم محتمل مع شخص قد تكون أجواء العاصمة ـ أو بالأدق «اداراتها المحترمة» ـ قد أججت درجات الضغط أو الدم أو السكر أو الكوليستيرول... فاختار راحة الدرجة الأولى غير المتوفرة في الدرجة الثانية، وبالتالي كنت عرضة له. وقبالة مقعدي كانت تجلس شابة ترتدي حجابا عصريا وبجوارها شاب لا يقل عنها سنا، وقد بدا من لباسهما وحركاتهما أنهما في سفينة ما تنعته ثقافتنا الشعبية بـ«شهر العسل» الذي نأمل له أن لا تعقبه «أعوام البصل». وبجوار الشاب كان شاب آخر يظهر أنه لم يتجاوز عقده الثالث بعد، وقد لفتت انتباهي الكتب الأجنبية التي كان يلتهم أحدها. ومقابل هذا الشاب كانت شابة أخرى لم تتجاوز عقدها الثاني بعد، كانت منهكة... ولذلك خلدت الى نوم خفيف كانت تكسره المحطات المتناثرة التي يتوقف فيها القطار، واستمرت على حالها الى أن حطت الرحال بمدينة سيدي سليمان.

بدا لي أنني الأكبر، والأهرم، ولذلك لم أجد بدا من اخراج كتاب «الحرب الباردة الثقافية» الذي تعرض فيه صاحبته الأمريكية فرانسيس ستونر سوندرز، وبدقة فائقة، استراتيجيات المخابرات المركزية الأمريكية في الميدان الثقافي في العالم بأجمعه. وبينما كنت غاطسا في قراءة الكتاب على غرار الشاب الآخر كانت الأيادي المقابلة لي تتشابك من حين لآخر وعلى ايقاع قبلات سريعة ومتفرقة كان الضوء الخافت للمقصورة جديرا بأن لا يكشف عن دقائقها. قلت بيني وبين نفسي كل شيء مباح في كرنفال القطار الذي نلتقي فيه بأناس لا نعرفهم عادة، وخصوصا من قبل أولئك الذين لا يكترثون بالآخرين.

وظللنا على حالنا الى أن أخذ القطار يعلن عن اقترابه من مدينة سيدي قاسم التي تمثل مفترق طرق أو سكك حيث سنأخذ في الحديث بشكل جماعي وكأننا نلبي الرغبة الدفينة التي قمعناها على مدار المسافة الطويلة من الرباط الى هذه النقطة. وكانت المفاجأة أن تدخل الشاب بالفرنسية مع أن ملامحه دالة بقوة على «الدم العربي النبيل»، وهذا ما قلته فورا، بل وربطت له المسألة بـ«العولمة» بـ«آلياتها التفكيكية» التي لم تعد تفرض أي نوع من الاستغراب. وكان رده اللبق، والمحفوف بابتسامة وديعة، أنه لا يفهم الا كلمات معدودة من العربية. وفي هذه الأثناء تدخلت المتحجبة مفككة صمتها بفرنسية طليقة ومزلزلة... ومستغربة ـ في الوقت نفسه ـ لحشري له في «عشيرتنا». وفي هذه اللحظة كان القطار قد توقف في محطة سيدي قاسم ليصعد أربعة شبان، وتضطر هذه الأخيرة ورفقة عشيقها الصغير الخجول لمغادرة المقصورة الى مقصورة أخرى لقوة «قانون الأرقام» موصية الشاب الفرنسي بصوت خفيض بأن يحتاط وأن ينتبه لحقائبه. خمنت أن حوارا من نوع ما قد ضاع... مع شابة بدا أنها قادرة على أن تقود القطار بأكمله لا الشاب وحده.

ولمجرد أن علم هؤلاء الشبان أن الجالس معنا فرنسي اشتعل النقاش، بل وأخذت وتائر هذا الأخير تتصاعد كالنار في الحلفاء. وكان محوره قطارات بعض المدن الفرنسية التي زارها اثنان من هؤلاء، فاضطررت للصمت طالما أنه لا علم لي بمدن فرنسا. فجميع هؤلاء كانوا يتكلمون بفرنسية بعيدة كل البعد عن فرنسية المحتجبة غير أنها تؤدي المقصود لعبد المقصود. وقد قدموا له أنفسهم بأنهم من مدرسة المهندسين بالرباط وأنهم كانوا في تدريبات عسكرية بمدينة الحاجب. وتذكرت ما كنت، قد سمعته في أيام العز الطلابي، عن مدرسة المحمدية وأبراهام السرفاتي... وهذه قصة أخرى. المهم، أو على الجانب الآخر، كشف لهم الشاب على أنه طبيب من «منظمة بلا حدود»، وأن مهامه بالمغرب هي تقديم المساعدات الطبية للمهاجرين الأفارقة غير الشرعيين. وبما أنه لا مجال في القطار لشيء آخر من غير النقاش، وبما أن النقاش مع الشبان لا يمكنه أن يسير في جميع الاتجاهات... فقد بدا الاسلام سيد النقاش في معركة غير متكافئة الأطراف.

ولم تكن تخفى على الطبيب الفرنسي الشاب أشياء كثيرة بحكم ـ وكما قال ـ طبيعة عمله التي قادته الى بلدان افريقية وآسيوية عديدة، وهو ما كانت تدل عليه بعض الكلمات العربية التي كان يرددها من حين لآخر. غير أنه بدا، وفي ركنه، مندهشا من «تدافع» أفكار هؤلاء الشبان الكاشفة عن «حسن نية» بل ـ وللحق ـ عن «لون أبيض أكثر من البياض» كما كنت قد قرأت على التو في الكتاب سالف الذكر. فكل شيء ـ في نظرهم ـ موجود في «كتاب العربية الأكبر»، وأن الكتب السماوية الأخرى قائمة على «التحريف»... ومن ثم فهي لا ترقى الى عظمة النص القرآني. وفي هذا الصدد أجهدوا أنفسهم بالتنقيب على كشوف عديدة، مستقاة من البر والبحر والجو، كان الاسلام ـ في منظورهم ـ قد برهن عليها قبل قرون. وكما قدموا له جردا من الأسماء الغربية التي أنهكها الالحاد فدخلت دار الاسلام، وبما في ذلك البحار الفرنسي الشهير كوستو. وقد استغرب الفرنسي أن يكون ابن جلدته هذا قد أسلم. ولم أندهش، وبالنظر الى وتيرة الحوار المتزايدة، أن يدعوه أحد هؤلاء الى قراءة النص القرآني التي ستفضي به حتما الى معانقة الاسلام. غير أن هذا الأخير استبعد الأمر، وأنه ظل، ومنذ وقت بعيد، يفكر في قراءة «القرآن». وبسبب من محاولتي استيعاب الأشياء ظللت على حال من الصمت والحياد، وحتى أسهم في النقاش، بادرت ناصحا اياه بأن يقرؤه في ترجمة المستشرق الفرنسي جاك بيرك. وكانت خلاصتي: تلك هي «نظرية السبق الحضاري» التي يردده آخرون من «علمائنا» الأجلاء لا هؤلاء الشبان الأبرياء فقط، «نظرية السبق الحضاري» لا «الفوات الحضاري» الذي تدعمه أرقام الواقع ومعادلات الاستبداد السياسي والكساد الاقتصادي والبلوكاج الاجتماعي.

وليس من شك في أن هؤلاء الشبان، ولا سيما من المتفوقين والمتحدرين من الأقسام التحضيرية، من تستوعبهم معاهد وكليات العلوم والطب والهندسة... ومن الذين يكونون «صيدا ثمينا» و«وقودا لاهبا» للحركات الاسلامية والمتطرفة منها على وجه الخصوص. وفي هذا الصدد تذكرت ما كنت قد قرأته حول الموضوع نفسه: وأقصد، هنا، الى ما كان قد قاله أحد دارسي الحركات الاسلامية، وأظنه محمد الشرفي، بخصوص هذه المعاهد والكليات التي تكتفي بتدريس هؤلاء المعادلات الرياضية والمظاهر الفيزيائية والأشكال الهندسية لكن دون أن تقدم على تدريسهم مبادئ «فلسفة اعلم» ذاتها التي قد تمكنهم من التربية على فضيلة «النقد» لكي لا نقول «النقد الجذري». وفي الوقت نفسه تذكرت مواطن الطبيب الفرنسي المحلل والمختص في «حريق الحركات الاسلامية في شمال أفريقيا» جيل كيبيل وما كان قد نعته، في كتابه «يوم الله»، بـ«الاسلام التحتي» في شبكاته المتناسلة. ولم تكن المقصورة، والقطار عامة، الا شبكة ضمن هذه الشبكات التي كانت تحكم هؤلاء الشبان في عنفوانهم وعز حياتهم.

أجل لقد كان هؤلاء يناقشون بأسلوب أبعد عن «الحقد» و«المكر» و«التشنج» الذي يطبع نقاشات العديدين سواء من الصغار أو الكبار من المطلعين على حواشي حواشي... الحواشي. أسلوب قوامه «الاحترام» لا «المغضوب عليهم» أو قوامه «التي هي أحسن» بدلا من «التي هي أقمع» اذا جازت عبارة جابر عصفور أحد المثقفين من المتنورين العرب المعاصرين النادرين. غير أن هؤلاء، ورغم أسلوبهم المتسامح الذي قد ينهار بسرعة في غليان تظاهرات رحاب الكليات وساحات الشوارع، يظلون، وفي النظر الأخير، تجسيدا لـ«خطاب» لا يفصل بين الدين ومجلات الحياة المتنوعة وبالقدر نفسه لا يميز بين الأنساق واختلاف الشعوب والحضارات والثقافات. وتلك هي «آفة» أو «آفات الأسلمة»: أسلمة الآداب والفنون والعلوم... بل والعصر بأكمله. ومن ثم منشأ «الاسلام السياسي»، ونبرة الاختلاف في الدرجة لا في النوع. وتلك هي الأفكار التي تتحول، وفي حال توفر الظروف والفرصة، الى «قنابل بشرية» في القطارات والطائرات.

في الواقع لم أكن في حاجة الى المزيد من الانصات، وأكثر، لمثل هذه الأفكار؛ ولذلك، وبمجرد ما أخذ القطار يقترب من محطة أصيلة، وبعد أن حييت الجميع، حتى أخذت أقترب من الباب لأفاجأ بعبد اللطيف رفقة الدكتور النشناش في المقصورة المحاذية للباب، ولأقول له «كان المضيف يدعى غير عبد اللطيف» اذا جاز أن أعكس صيغة الشعر العامي المصري. غير أنه كان عليَ النزول في محطة أصيلة بدلا من مواصلة الرحلة في كرنفال من نوع آخر الى «عروس الشمال».

ذلك هو «المغرب الهجين» و«اسلام القطارات».

* كاتب من المغرب

قـــص

انصاف قلعجي*

الحب في مدار السرطان

■ هل كان الكلام حارا وصار رخوا في المرات الباردة بعد أن قررنا الرحيل وقد كنت ذات صباحات ممطرة حنونا دافئا|ربما هي ثرثرة في مدار السرطان ثرثرة حيث لا يسمعنا أحد نصرخ ملء وجودنا ونردد | الآخرون هم الجحيم | يا نار كوني بردا وسلاما عليه.....
.....كوني بردا.....
وسلاما.....ع
ليه.....

قد تكون مدارات كثيرة ولكن حين نأتي لزمن الدفء نختار الشمس حين تسقط على مدار السرطان في برج مائي على خط 23,5 شمال خط الإستواء / كم تدفأت عنده والمطر يغمر وجهي جسدي أصابع قدمي لتلتحم بالبرج الهوائي الميزان / قالت له وهي تغيب في هيجان الكيماوي الذي يخترق كل مساماها فينزع الشعر شعرة شعرة جذرا جذرا فتحس بالأيدي التي تخلع ودبيب الكيماوي الأ